Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 210

الثقافة ومنطق التمييز

حسب بيار بورديو
PIERRE BOURDIEU

عبد الكريم بزاز *

١-الثقافة رهان طبقي :

- الثقافة: رهان للصراعات.
- منطق إنتاج «الثقافي» يمر على استقلالية الحقل الثقافي.
- الثقافة المسيطرة تفترض عملا للمشرعة يمر عبر الصراعات الرمزية.
- صراع الطبقات يأخذ شكل صراع رمزي.
- العنف الرمزي يقوم على فرض مقولات إدراك العالم الاجتماعي.
- نشر المعتقدات يتم بفضل المؤسسات.

٢- الممارسات الثقافية تتميز بالانتماء الاجتماعي ومؤسسة على منطق التمييز :

- وجود ثقافة شرعية يهيكل المؤسسات.
- استهلاك الثروات الثقافية يدخل ضمن إستراتيجية التمييز الاجتماعي.
- التمايزات الاجتماعية توجد في شكل وفي طبيعة الممارسات.
- التمايزات الاجتماعية تظهر في نفس الممارسة.
- العلاقة مع الثقافة تختلف حسب الانتماء الطبقي الثقافة ومنطق التمييز.

١- الثقافة رهان طبقي:

إن علم اجتماع الثقافة لا يمكن فصله عن نظرية السيطرة لبيار بورديو: فمن خلال الثقافة يضمن المسيطرون سيطرتهم.كما أن الثقافة هي منظومة من الدلالات المتدرجة: لأن الثقافة هي كذلك رهان للصراعات بين المجموعات الاجتماعية،الغاية من هذا الرهان هي الحفاظ على الفوارق التمييزية بين الطبقات الاجتماعية. وبالتالي، نجد أنفسنا أمام ميدان لتحليل الصراعات والعنف الرمزي يؤدي إلى التساؤل حول الآليات التي من خلالها يساهم المسيطر عليهم في قبول السيطرة عليهم. وعلم اجتماع الثقافة يؤدي إلى تحليل منطق الممارسات الثقافية والتي لا

* كاتب وأكاديمي من الجزائر.

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 211

يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى الثقافة المسيطرة.

- الثقافة: رهان للصراعات :

الثقافة حسب بورديو هي رأسمال منتج في حقل خصوصي. وأن مصطلح «ثقافة» له معان متنوعة، هناك أولا المعنى الأنثروبولوجي، والذي يعني طرائق الفعل والإحساس والتفكير الخاصة بجماعة اجتماعية. وهذا المفهوم الشامل صيغ في مقابل مفهوم الطبيعة، ويدخل ضمن الثقافة كل ما هو مكتسب وموروث أي منقول في مقابل ما هو فطري أي كل ما يجعل من الناس كائنات خلاقة لظروف وجودها الخاصة. وفي هذا المعنى فإن كل جماعة إنسانية تشترك في ثقافة، خاصة وأن كل مجتمع مهما كان يقوم بصياغة ممارسات تقنية وقواعد للسلوك ويبني تمثلا للعالم... ووفق هذا المنطق فإن الثقافة تؤسس الهوية الجماعية لمجموعة كبيرة، عندما نتحدث مثلا عن الثقافة الغربية وعن هوية جماعة محدودة أو عندما نتحدث عن ثقافة «الإنويتز.INUITS».

والثقافة في المعنى العام والجاري تعني المعارف العلمية والفنية والأدبية للفرد، وهي تقابل الإنسان المثقف بالفرد «الجاهل» وعلى مستوى المجتمع الشامل فإنها تعني التراث الخاص بالأعمال الفكرية والفنية ولرفع اللبس، فإن علماء الاجتماع يتحدثون في هذه الحالة عن الثقافة العالمة أو كذلك عن الثقافة «المثقفة». ويتعلق الأمر بثقافة النخبة المثقفة، والتساؤل المركزي حول هذا التصور للثقافة يكمن في علاقاتها مع الثقافة الجماهيرية التي هي مجموعة المعارف والقيم المنقولة من طرف وسائل الإعلام ووسائل الاتصال الجماهيرية (الصحافة، الإذاعة، التلفزيون) والمؤسسات الثقافية الأخرى (الصناعات السينمائية، صناعة الأسطوانات...). إن انتشار الثقافة المعيرة CULTURE STANDARDISEE هو أساس التوحيد الثقافي

UNIFORMISATION DE LA CULTURE

أما في المعنى السوسيولوجي فإن الثقافة تعني مجموعة القيم والمعايير والممارسات المكتسبة والمشتركة عند مجموعة من الأشخاص.إن هذا التعريف يشهد على تأثير الاستعمال والتوظيف السوسيولوجي، ولكن مع إهمال الإشكالية طبيعة/ثقافة.

إن البحوث السوسيولوجية حول الممارسات الثقافية التي أجريت في فرنسا تتبنى تعريفا واسعا نسبيا للثقافة. ولا تعتبر كثقافية الخدمات الملازمة للأعمال الفنية وكذلك تلك التي لها علاقة بالاتصال (الصحافة والإذاعة والتلفزيون) والترفيه. إن مثل هذه المقاربة تدخل في الثقافة في معناها السوسيولوجي أي الثقافة العالمة ولكن لا تحصرها في الممارسات «النبيلة»، وبالتالي فإن التعريف السوسيولوجي يشمل عدة معاني ويجعل من مفهوم الثقافة مفهوما صعب الاستعمال.

إن استعمال المصطلح في صيغة الجمع «ثقافات» يرجع إلى مفهوم التعدد الثقافي. وبالتالي فداخل نفس الثقافة يمكن أن تتعايش جماعات لا تتقاسم نفس الممارسات والتمثلات المسيطرة. والوحدة الثقافية التي تفترض وجود ثقافة متشابهة بالنسبة لكل الأفراد يحل محلها التنوع. وعكس المجتمعات التقليدية، فإن المجتمعات المصنعة تتعقد وأن موقع الأفراد في البنية الاجتماعية غير متشابه ويترتب عن ذلك وجود ثقافات مختلفة. وهذه الثقافات يمكن أن تؤسس على خصوصيات جهوية ولكن كذلك على الانتماء إلى جماعات اجتماعية متمايزة كالثقافة العمالية.ونسمي ثقافة فرعية SOUS- CULTURE لتعيين السلوكات والقيم الخصوصية لجماعة معينة داخل المجتمع الكلي، وثقافة مضادة CONTRE-CULTURE عندما تعارض الجماعات الثقافة المسيطرة وتبحث عن ترقية وإحلال قيم ثقافية جديدة.

إن قراءة أعمال بورديو حول الثقافة أصبحت صعبة خاصة وأن الكاتب يستعمل بصفة غير تمييزية المعاني المختلفة . فهو لا يعتبر الثقافة بمثابة الوصول إلى التراث الثقافي والفني فحسب ولكن كذلك كتدرج للقيم والممارسات.إلا أن ما يهم في التحليل هو أن الثقافة لها كل خصائص رأس المال وبالتالي فهي

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 212

رهان للصراعات في حقل له استقلاليته.

- **منطق إنتاج «الثقافي» يمر على استقلالية الحقل الثقافي** كما هو حال كل الحقول،فإن الحقل الثقافي يشتغل كالسوق بمعنى فيه العارضون والمستهلكون. المنتجون تكمن مهمتهم في إنتاج «القوانين الرمزية» المنظمة في شكل منظومات ثقافية متمايزة. وهذه المنظومات الثقافية مكونة من طرائق الرؤية فيما يتعلق بالسينما والتلفزيون والإشهار والرسم... وطرائق الإحساس فيما يتعلق بإنتاج وتوزيع الرواية أو الشعر... وطرائق التفكير فيما يتعلق بالتمرن المدرسي على الرياضيات وفن تلخيص النص والتعليق... إن هذا العالم الرمزي يكتسب تدريجيا(كلما تطور وتكونت مؤسساته وأساليب هيمنته على الأفراد) استقلالية تسمح له بدوره بهيكلة العلاقات الاجتماعية.إن عمل صياغة «القوانين الرمزية» يفترض إذن دائما استقلالية الأعوان والتي تكون ممارستهم مرتبطة بهذا الإنتاج الثقافي والذين ينزعون إلى التخصص. وعلى سبيل المثال يمكن دراسة الظهور التاريخي لـ «المثقف».

منذ النهضة، بدأ الانتقال من ثقافة تابعة للكنيسة نحو حقل ثقافي متفتح على العلوم الجديدة، والآداب والفنون. وتقدم الطباعة الذي كان سببه الطلب المتزايد على المطبوعات مما أدى وبسرعة إلى ترقية صناعة جديدة. وفي القرن السابع عشر ظهر في الحقل الفرعي للأدب الكاتب المحترف الذي يتعارض مع هيمنة الكنيسة والمملكة وأصحاب المكاتب والناشرين وكل الذين يحددون من حريته. ويمكن أن نوسع هذه الطريقة إلى كل الميادين: الموسيقى والمسرح والرسم...

أما اليوم، فإن حقل الإنتاج الثقافي حصل على استقلاليته وهو متكون من العديد من المنتجين المتخصصين، والتحاليل والنظريات المتنافسة هي في نهاية المطاف ثمار عمل هؤلاء المختصين. إن الحقل الثقافي يذكرنا بأن الثقافة ليست ببساطة مجموعة من الأعمال وإنما كذلك صياغة لمختلف إدراكات العالم وكذلك طريقة خصوصية لوصفه ولفهمه. إن الثقافة هي مجموعة من بنى الإدراك،هذه البنى مصاغة من قبل الأفراد الذين لهم رأسمال ثقافي مرتفع وسلطة شرعية معترف بها كالمثقفين المكرسين والصحافيين المهمين وقادة الحركات الممثلة المؤثرة كالنقابات وجماعات الضغط.

إن المعتقدات والقيم والبناءات النظرية والنظريات الاجتماعية تتطور مبدئيا داخل هذه الأوساط المحدودة. ولكن انتشار هذه التمثلات على كل المجتمع وتبنيها لا يتم بصفة تلقائية.

- **الثقافة المسيطرة تفترض عملا للمشرعة يمر عبر الصراعات الرمزية :**

إن رهان هذه الصراعات يتمثل في فرض تعريف شرعي للعالم الاجتماعي يسمح بضمان إعادة إنتاج النظام الاجتماعي. ويتعلق الأمر هنا بفهم كيف أن التعسف الثقافي لطبقة معينة تحول إلى ثقافة شرعية. إن أطروحة بورديو تكشف أن الثقافة المسيطرة هي ثقافة الطبقة المسيطرة والتي من خلال عمل طويل للمشرعة أدت إلى نسيان كل مظاهر التعسف التي هي في أساسها. أن المشرعة تعني العملية التي تؤدي إلى الشرعية. والتعسف يعني الشيء الذي له وجود فعلي أي الأمر الواقع لا الوجود الناتج عن الحق والقانون ولا شيء يبرره، ولا يلزم على قبوله. من خلال هذه المقاربة فإن الصراع لا يتم بين طبقات «مجندة» ومجتمعة للدفاع أو لتعديل بنية الخصائص الموضوعية ولكن طبقات «موضوعية» (بمعنى هنا) مجموعة من الأعوان يوجدون في ظروف حياة متجانسة.

- **صراع الطبقات يأخذ شكل صراع رمزي :**

يرى بيار بورديو أن الصراعات الرمزية تهدف إلى فرض نظرة للعالم مطابقة لمصالح الأعوان،وهذه النظرة للعالم تخص الموقع الموضوعي في الفضاء الاجتماعي (الجانب الموضوعي) وكذلك التمثلات التي يحملها الأعوان عن العالم الاجتماعي (الجانب الذاتي):

«يمكن للصراعات الرمزية المتعلقة بإدراك العالم

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 213

الاجتماعي أن تأخذ شكلين مختلفين. يمكن من الناحية الموضوعية، أن نسلك من خلال أفعال للتمثل فردية أو جماعية تهدف إلى تقديم أو ترسيخ بعض الحقائق: وأذكر هنا على سبيل المثال المظاهرات التي تهدف إلى إظهار جماعة ما بعددها وقوتها وتجانسها وبالتالي إعطائها وجودا مرئيا، أما على المستوى الفردي يتم ذلك من خلال كل إستراتيجيات التعريف بالأنا (...) نهدف إلى إظهار صورتنا وخاصة(...) مكانتنا في الفضاء الاجتماعي.ومن الناحية الموضوعية، يمكن أن نسلك لمحاولة تغيير مقولات إدراكنا وتقييمنا للعالم الاجتماعي.إن البنى المعرفية والإدراكية والتقييمية ومنظومات التصنيف بمعنى الكلمات والأسماء التي تبني الواقع الاجتماعي والتي تعبر عنه هي بامتياز رهان للصراع السياسي والذي هو صراع لفرض المبدأ الشرعي للرؤية وللتقسيم الشرعي...»(١)

إن التعريف الخاص لما هو شرعي أصبح إذن مسألة ذات أهمية قصوى بالنسبة لكل جماعة اجتماعية وبالنسبة لكل عون لأن رهانه يتمثل في الحفاظ أو في تغيير النظام القائم،بمعنى الحفاظ أو التمرد على علاقات القوة. إن الواقع الاجتماعي هو كذلك علاقة معنى وليس فقط علاقة قوة: إن كل سيطرة اجتماعية، إلا في حالة اللجوء إلى العنف المسلح باستمرار، لا بد أن يعترف بها وتقبل وكأنها شرعية. وهذا يفترض إقامة سلطة رمزية وهي سلطة تتوصل إلى فرض دلالات وإلى فرضها وكأنها شرعية وذلك بإخفاء علاقات القوة التي هي أساس قوتها. ومن هذا المنظور فإن العلاقات الاجتماعية هي كذلك علاقات تنافس بين إعتسافات ثقافية (ثقافات)، وبما أنها تدور حول الحقل الرمزي، فإن بيار بورديو يقترح تسميتها بـ «صراعات التصنيف».

LUTTES DE CLASSEMENT

- العنف الرمزي يقوم على فرض مقولات إدراك العالم الاجتماعي :

«إن العنف الرمزي هو ببساطة ذلك الشكل من العنف الذي يمارس على العون الاجتماعي بتواطئه... ولقول هذا بكل دقة، فإن الأعوان الاجتماعيين هم أعوان عارفون والذين، حتى وإن أخضعوا إلى حتميات فهم يساهمون بدورهم في إنتاج فعالية ما يحددهم خاصة وأنهم يهيكلون ويؤطرون ما يحددهم (...) أسمي تجاهلا، عندما نقر بوجود عنف يمارس ونتجاهل بأنه عنف، وهذا ما يعني أننا نقبل مجموعة من الأحكام المسبقة الأساسية والتي يستعملها الأعوان الاجتماعيون لأنهم يتخذون العالم وكأنه عادي بمعنى كما هو ويجدونه طبيعيا لأنهم يطبقون عليه بنى معرفية مستنتجة من نفس بنى هذا العالم. ولكوننا ولدنا في عالم اجتماعي، فإننا نقبل عددا من المسلمات التي تأتي من تلقاء ذاتها ولا تتطلب تلقينا».(٢)

إن التمثلات المسيطرة DOXA بمعنى مجموعة الآراء المشتركة والمواقف القائمة والأفكار المقبولة،كل ما يأتي من تلقاء ذاته بدون مناقشة لا يمكن أن تفرض داخل مجموعة اجتماعية أو في كل المجتمع إلا من خلال عملية تلقين حيث تكون فعاليتها رهينة عاملين.

تكون في البداية، عقلنة في تعابير عامة ومعولمة لمتطلبات خصوصية خاصة بالوسط الذي شهد ظهورها. لنأخذ مثلا المطالبة بالحرية ،بالنسبة للمثقفين فإنها تدل أولا على حرية الكلام والكتابة والنشر وبالنسبة لأرباب المؤسسات، حرية تحديد الأسعار والأجور والتوظيف والتسريح. المطالبة بالحرية تصبح معولمة عندما ترتقي إلى مرجع إيجابي بالنسبة إلى كل الشعوب بما في ذلك الأفراد الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة أو بالنسبة للذين يعيشون في تبعية اقتصادية مطلقة. إن كل هذه المقولات تقترح باسم العقل وباسم العلم ولكنها في الواقع تؤسس من خلال وجود علاقات قوة فكرية وثقافية .

لا بد إذن من التركيز على الدور الأساسي الذي

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 214

يلعبه الكلام: إن تعريف ما هو شرعي يمر من خلال «معارك الكلمات». إن تسمية الأشياء بهذه الكيفية أو بتلك،يعني إعطاؤها وجودا مغايرا أو محوها من الوجود. إن كل فئات الأعوان المسيطر عليهم سواء تعلق الأمر بالفئات الجنسية أو بالفئات العمرية أو بالفئات الإثنية (العرقية) أو بالفئات الاجتماعية -المهنية... هي محل خطاب قدح وتشهير فج أو حذق وبالتالي محل توصيم كما يمكن أن تعطى لها هوية سلبية.

- نشر المعتقدات يتم بفضل المؤسسات :

المؤسسات هي هيئات السلطة التي يتمثل دورها في التأسيس للواقع، وفي الحفاظ بصفة رسمية على العلاقات الاجتماعية وعلى تدعيمها. وتستطيع المؤسسات أن تفرض في ميادينها الخاصة تعاريف شرعية للواقع على الأعوان الذين يثقون فيها. تستعمل إن المؤسسات سلطتها لإعطاء أو لعدم إعطاء مصداقية لمزاعم الأعوان في امتلاك هذه الملكية أو تلك، كما تقوم المؤسسات على الانتقاص من قيمة المعتقدات المنافسة، ثم إن بعض الفاعلين الاجتماعيين الذين يوجدون في وضعية متميزة يفرضون منظومة تمثلاتهم لأنهم يراقبون أو على الأقل يمارسون تأثيرا خصوصيا على هيئات التنشئة الاجتماعية كالمدرسة والمنظمات الدينية أو السياسية ووسائل الإعلام.

وترجع فعالية فعلهم إلى سلطتهم في التعيين، فهم يمنحون الألقاب والشهادات والأوسمة الرسمية وذلك عن طريق تعيين واعتماد وتقليد وتنصيب أعوان بواسطة طقوس تنصيب رسمية. وبالتالي فهم يفرضون «واجب التمظهر» على الأعوان المكرسين من خلال تبني الخطاب المؤسساتي حول الواقع. عندما يعين شخص في الأكاديمية الفرنسية ، فهو مطالب بالإمتثال للدور الذي تنتظره منه المؤسسة. وكذلك الحال بالنسبة لكل الطقوس المدرسية والجامعية والتي من خلال الامتحانات والمسابقات تضع حدودا بين الأفراد.

إلا أنه يوجد شرط مضاعف للفعالية الرمزية لطقس المؤسسة، فمن جهة لابد أن يكون الأعوان الذين تتوجه لهم المؤسسة مهيئين للخضوع لأحكامها،لأن الخطاب المؤسساتي لا يمكن أن يشتغل إلا إذا وجد عند الأعوان بنى داخلية معرفية وعاطفية مهيأة لقبوله واستقباله. ومن جهة أخرى ، لا بد أن يكون تعريف الواقع مصاغا من قبل الأعوان المسموح لهم والمرخص لهم، بمعنى الأعوان الذين يستمدون سلطتهم من الرأسمال الرمزي الهام نوعا ما والذي اكتسبوه وراكموه بفضل الأحكام الصادرة عن الحقل المعتبر و هؤلاء الأعوان يظهرون وكأنهم الناطقون باسمه. فلا أحد يزعم أو يدعي بصفة شرعية بأنه طبيب إذا كانت هذه الصفة معترف له بها من طرف خباز.إن الشرعية المنتجة بواسطة هذه العمليات المتعددة تدخل أيضا في الممارسات الثقافية لمختلف الطبقات.

٢- الممارسات الثقافية تتميز بالانتماء وتؤسس على منطق التمييز :

- وجود ثقافة شرعية يهيكل الممارسات .

- الفضاء الاجتماعي تخترقه صراعات قائمة على تراكم رأسمال رمزي .

إن أي خاصية موضوعية لا يمكن أن توجد إذا لم تكن موضوعا لتمثل يؤدي إلى الانضمام والانخراط.أن نعيش كمتشردين ونحن نملك ثروة كبيرة فهذا يثير الاستهجان وعلى العكس فإن تبيين الدلائل الخارجية للثراء بطمس نوع من البؤس الموضوعي يضمن نوعا من الاعتراف الاجتماعي، لأن الفرق يكمن في الرأسمال الرمزي والاعتباري الذي نملكه. ولا بد من ملاحظة أنه على المستوى الاجتماعي، يوجد الشيء طالما أننا نعتقد أنه واقع وموجود وعكس ذلك لا يوجد الشيء إن لم نعتقد في وجوده. وفي هذا المعنى ، يمكن القول إن الرأسمال الرمزي هو قرض (في معنى الاعتقاد والثقة التامة المعطاة مسبقا) ممنوح للعون بتزكية من أعوان آخرين والذين يعترفون له بهذه الخاصية المثمنة أو بتلك.

يقوم اشتغال الفضاء الاجتماعي على إرادة التمييز بين الأفراد والجماعات بمعنى على إرادة

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 215

امتلاك هوية اجتماعية خاصة تسمح بوجودنا الاجتماعي.ويتعلق الأمر قبل كل شيء بأن يعترف بنا من قبل الآخرين وأن نكتسب أهمية مرئية وفي الختام أن يكون لنا معنى.

إن هذه الهوية الاجتماعية تقوم على اللقب العائلي وعلى الانتساب إلى عائلة (كالانتماء إلى أصل) وعلى الجنسية وعلى المهنة وعلى الدين وعلى الطبقة الاجتماعية وهي انتماءات تعطي للأفراد علامات وتوصيمات.أن نكون موجودين اجتماعيا فهذا يعنى أننا «مدركون» بمعنى أن نقوم بتعريف قدر الإمكان وبصفة إيجابية بخصائصنا المميزة. ومنه ضرورة تحويل أية خاصية موضوعية إلى رأسمال رمزي.

إذا نجح عون في حقل معين،في إعطاء للآخرين تمثلا مقنعا للرأسمال الذي يزعم أنه يملكه،يمكن أن يحصل على منافع حقيقية من خصائص قد تكون في حد ذاتها وهمية. وهذا يفترض إذن أن الأعوان المهيمنين يجب أن تكون لهم شهرة بمعنى مراكمة رأسمال رمزي يؤدي إلى الاعتقاد أن لهم استحقاقات. وهكذا فإنهم يبنون زعامتهم والتي لا توجد إلا عندما يعطي المهيمن عليهم خصائص نوعية ومثمنة للمهيمنين.

إن السلطة الزعامية المعطاة للأفراد الذين يفترض أن لهم خصائص خصوصية تضمن لهم إشعاعا اجتماعيا استثنائيا، يقوم على تفويض للسلطة من المهيمن عليهم لصالح المهيمنين والذين لا تمارس عليهم سوى السلطة التي وضعوها بين يديهم.وهذا ما يفسر أن العديد من الأفراد والذين في البداية لهم مواهب عادية ولكن محظوظين بفضل الظروف وكذلك من قبل مساعدين وأعوان نشطين(وسائل الإعلام تمثل اليوم الشكل الأكثر فعالية) استطاعوا الوصول في ميدان أو آخر إلى مواقع من السلطة لا علاقة لها بكفاءاتهم الفعلية.

- استهلاك الثروات الثقافية يدخل ضمن استيراتجية التمييز الاجتماعي :

إن إرادة مراكمة الرأسمال الرمزي تسمح بتفسير الممارسات الثقافية. وأن كل الدراسات الامبيريقية تبين أن الطبقات المسيطرة هي التي تتردد بكثرة على المتاحف أو الأوبرا والمكتبات وعلى شراء الكتب، وبالتالي لا يكون الحصول على الثروات الثقافية غير متساو، وعدم التساوي لا يعكس فقط التفاوت الاقتصادي ولكن هو كذلك انعكاس لإستراتيجيات التمييز بمعنى للصراع الطبقي في الميدان الثقافي. إن الصراع الطبقي يظهر يوميا في شكل غير معروف ومتوارى من أشكال الصراع من أجل خلق تدرج شرعي في مختلف الممارسات بمعنى الصراع من أجل التصنيفات الاجتماعية.

ويرى بورديو أن الثروات الثقافية مصنفة حسب تدرجات: المسرح الكلاسيكي يقابله مسرح الشارع ورياضة الغولف تقابلها كرة القدم...وتوجد ميادين ثقافية نبيلة كالموسيقى الكلاسيكية والنحت والأدب وممارسات أقل نبلا وفي طريق المشرعة (السينما والتصوير والأغنية والجاز ...) ولكن داخل كل من هذه القطاعات نجد مستويات مختلفة من التمييز، فداخل الموسيقى الكلاسيكية يمكن أن نعثر على الذوق الشعبي والذوق المتوسط والذوق المتميز.

وهكذا فإن معرفة واستهلاك هذه الثروات تصبحان عاملا مصنفا، وبهذا المعنى فإن الأعوان الاجتماعيين يصنفون أنفسهم ويتعارضون في الوقت الذي يقومون بهذه الممارسة أو بتلك ، ويعبرون كذلك عن أذواقهم. إن الحقل الثقافي يشتغل إذن كمنظومة من التصنيف المؤسسة على تدرج ينطلق من الأكثر شرعية إلى الأقل شرعية وباستعمال اللغة العادية من المتميز إلى المبتذل. و يسمح الحقل الثقافي للأعوان الاجتماعيين إعداد إستراتيجيات للتمييز تجاه أعضاء الطبقات الأخرى. إن فرص إظهار التمييز متعددة ولا يمكن حصرها وحتى في الممارسات الأكثر بساطة: اللباس، التأثيث الداخلي، السياحة، الترفيه، الرياضة،الطبخ وكما كتب أيضا بورديو في التمييز فإن الأذواق هي كذلك لا أذواق: الأذواق تشتغل في نفس الوقت كعوامل إدماج تشهد على الانتماء الطبقي

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 216

وكذلك كعوامل إقصاء.

-التمايزات الاجتماعية توجد في شكل وفي طبيعة الممارسات :

التمايزات الاجتماعية تظهر في نفس الممارسة.إن المقاربة في شكل ثقافة جماهيرية تدعو إلى التفكير بأن امتلاك ممارسة ثقافية أمر ممكن من قبل كل الأعوان الاجتماعيين وأن معنى الممارسات هو متشابه بالنسبة للجميع. وضد هذه «الشيوعية الثقافية» COMMUNISME CULTUREL بين بيار بورديو أن الدخول الديمقراطي لأي ممارسة ثقافية يظل مطبوعا بالإنتماء الطبقي الذي هو إنتاج ملكة خصوصية.

وهكذا الشأن بالنسبة لممارسة التصوير،إن الدراسات التي قامت بها فرقة بيار بورديو من ١٩٦١ إلي ١٩٦٤ كانت موضوعا لكتاب عنوانه «فن متوسط»[٣] UN ART MOYEN الذي يعطينا نموذجا حول الاستعمال والتمثل المتمايز لنشاط في متناول كل الأعوان الاجتماعيين. وبالفعل، فلا يوجد عائق تقني ولا اقتصادي يحول دون إنتشار ممارسة التصوير لأن سهولة إستعمال الآلات وانخفاض أسعارها يساهمان في ذلك بكثير، إضافة الى أن ذلك لا يتطلب أي تحضير فكري وتكوين خصوصي.

إن هذا التبسيط سيخضع ممارسة التصوير عند مختلف الجماعات الاجتماعية لمعايير مختلفة وهو كذلك فرصة لتبيين الفوارق والتمايز.

نلاحظ عند الفئات الشعبية مواقف واتجاهات متمايزة. عند الفلاحين فإن التصوير يعتبر كتجل للثقافة الحضرية وهو موضوع لمقاومات شديدة والتصوير ينظر إليه وكأنه ترف: تعطي الملكة «الفلاحية» الأولوية للمصاريف المتعلقة بالاستثمار وتحديث الآلات قبل مصاريف الترفيه والاستهلاك المعتبر وكأنه تافه.

أما في الأوساط العمالية وعكس ذلك فإن ممارسة التصوير هي موضوع لانضمام سريع،لكن المعنى الجمالي للممارسة مغيب تماما وما يهم هنا هو وظيفة التصويرفقط: ضمان وحدة العائلة وتطوير ممارسات الألفة الاجتماعية حول تمثيل مختلف الأحداث العائلية (زواج، اعتماد)

أما أعضاء البرجوازية الصغيرة فهم يرفضون العلاقة الشعبية مع التصوير، ويعتبرونه كفن وليس كتراث من الذكريات،لأن النشاط التصويري ينظر إليه في مقابل الرسم، والبعض يرى في هذه الممارسة توكيدا للتمايز عن الثقافة الشعبية وذلك بتجاوز علاقة التصوير بالأحداث العائلية، وذلك باتخاذ مواضيع «لا تستحق» صورة (تفاصيل في بناية،يد شخص...).

أما الطبقات الراقية وعلى النقيض من ذلك، فإنها تضع ممارسة التصوير في أسفل سلم الممارسات الجمالية، فلا تعيرها اهتماما كبيرا لأنها تعتبر التصويرسفنا دونياسوتكفي بساطة وانتشار الممارسة لأن توصف وكأنها مبتذلة. إن الثقافة «المثقفة» CULTURE CULTIVEE كما بين ذلك بورديو في كتابه «حب الفن» [٤] تقوم أساسا على زيارة المتاحف والذهاب إلى الأوبرا.

وبعد خمسة عشر عاماً من نشر النتائج الأولى،تساءل بورديو من جديد في كتابه «التمييز» حول علاقات الطبقات الاجتماعية المختلفة بالتصوير.

إن كانت ممارسات التصوير قد انتشرت بكثرة، فإن السؤال المطروح يكمن في تحديد المعنى الذي يعطيه لها الممارسون الهواة [٥]

إن طبيعة الأحكام تترجم تدرج الكفاءات الفنية، فالطبقات الشعبية تجند بنى «الإيطوس» لتوصيف التصوير دون اللجوء إلى الأحكام الجمالية المحضة، فهم ينتظرون أن تؤدي كل صورة وظيفة، وكلما ارتقينا في السلم الاجتماعي، فإن الحديث عن التصوير يصبح تجريديا أكثر فأكثر.

أوإذا كانت الممارسة التصويرية قد انتشرت على مستوى كل الفئات الاجتماعية، فإن إستراتيجيات التمييز تظل قائمة عند الفئات المهيمنة وذلك برفض

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 217

الاستعمالات المشتركة وبمنحها قيمة جمالية لمواضيع تعتبر بسيطة، وعليه فإن ممارسة التصوير تدخل ضمن جملة من الممارسات التي تنضوي تحت «الثقافة المثقفة» ..(٦)

- العلاقة مع الثقافة تختلف حسب الانتماء الطبقي :

إن الاستهلاك الثقافي يتغير حسب الطبقات الاجتماعية، فهو رهين الموقع الذي نشغله في الفضاء الاجتماعي، بمعني حجم وبنية الرأسمال الذي نملكه وهكذا فإننا نلاحظ تشابها وتماثلا بين بنية الطبقات وبنية الأذواق والممارسات.

تحاول الطبقة المسيطرة الحفاظ على موقعها من خلال استراتيجية التمييز وذلك بتحديد وبفرض «الذوق السليم» LE BON GOUT على باقي المجتمع.

ويكمن منطق التمييز في إبقاء مسافة تمييزية بين الممارسات، فكلما انتشرت ممارسة فإنها تفقد من سلطتها التمييزية، وبالتالي لا بد من تعويضها بممارسة أخرى مخصصة لأعضاء الطبقات المسيطرة. مثلا في ميدان الترفيه الرياضي، فإن تعميم ممارسة التنس صاحبه انسحاب الطبقات المهيمنة من ممارسة هذه الرياضة.

الطبقات المهيمنة تفرض كذلك دلالات جديدة بواسطة اللغة والكلام وتتحكم في استعمالهما أكثر من الفئات الأخرى، وحسب بيار بورديو فإن الطبقات المهيمنة تملك احتكار الكفاءة اللغوية الشرعية أي المطابقة للقواعد النحوية وللأسلوب الذي يضمن فعاليتها لأن علاقة الطبقات المهيمنة مع الثقافة تتم حسب ووفق أسلوب التماسف والقراءة وراء السطور.

تتميز البرجوازية الصغيرة بـ «حسن النية الثقافية» لأن ملكتها تترجم من خلال إضفاء احترام منتظم للثقافة المسيطرة، وباعتراف بالثقافة الشرعية وبالرغبة في اكتسابها، فهي تحاول محاكاة الممارسات النبيلة أو القيام بممارسات تعويضية.

إن هذه السمات تظهر بقوة لدى البرجوازية الصغيرة الصاعدة لأن أعضاءها يستثمرون في الأشكال الدنيا للإنتاج الثقافي ويهتمون بالسينما والجاز ويقرؤون مجلات التبسيط العلمي والتاريخي، كما أنهم في اضطراب مستمر خشية السقوط في ما هو مبتذل (وبالتالي في ما هو شعبي) ولديهم إرادة «التمايز» بمعنى ما يحاول أن يجعل منهم برجوازيين.

إن هذه الوضعية «المزيفة» تتجلى خصيصا في علاقة أعضاء البرجوازية الصغيرة باللغة والكلام والمتميزة بالتصحيح اللغوي المفرط،وهي نزعة تهدف إلى مطاردة عندهم وعند الآخرين كل أشكال الخطأ.

أما الطبقات الشعبية والتي حسب بورديو تتميز ملكتها بـ «اختيار الضروري» وبتثمين الفحولة فلها ممارسات ثقافية تجد منطقها في رفض الاندماج مع البرجوازية الصغيرة، وهكذا فإن «الثقافة المثقفة» ينظر إليها على أنها تخل عن مبدأ الفحولة والمواضيع التي لها صبغة أو طابع «برجوازي» فهي محظورة ومحرمة في محادثاتها.

وحسب بيار بورديو فإنه لا توجد ثقافة شعبية في المعنى السوسيولوجي للكلمة ولكن توجد فقط مجموعة من الممارسات والتمثلات والتي هي عبارة عن:

أجزاء متناثرة لثقافة عالمة قديمة نوعا ما (كالمعارف الطبية) منتقاة ومؤولة حسب المبادئ الأساسية للملكة الطبقية ومدمجة في الرؤية السائدة للعالم المترتب عنها.(٧)

وعليه، فلا وجود لثقافة شعبية مضادة لأن الشرعية الثقافية للمهيمنين ليست محل مراجعة .

وبالتالي ، فإن علم اجتماع الثقافة ، في المعنى المزدوج للمصطلح، قائم على نظرية الهيمنة الثقافية ،فلكل موقع في السلم الاجتماعي ثقافة خصوصية: ثقافة نخبوية ومتوسطة وجماهيرية وهي على التوالي متميزة بالتمييز والإدعاء والحرمان.

إن علم اجتماع الثقافة عند بيار بورديو يؤكد على أهمية الصراعات الرمزية في الصراع الطبقي وذلك من خلال فرض دلالات وتناسي التعسف وهذا هو منطق العنف والهيمنة الرمزيين. ويترتب عن هذا أن

Thaqafat Ar. Side 19/5/04 9:15 AM Page 218

الثقافة تشكل عنصرا من مجموعة أوسع أي حقل الإنتاج الرمزي والذي يساهم فيه بصفة تنافسية كل من الحقل السياسي والحقل القانوني والحقل الديني وكل حسب شرعية مختلفة وحسب الأزمنة ينتج تمثلات للعالم بهدف نشرها وفرضها.

وفي المجتمعات المعاصرة، تحصل المنتجون الثقافيون على استقلاليتهم ولهم مؤسساتهم التي تساهم في تحديد الثقافة المثقفة كثقافة شرعية توجه ممارسات كل الطبقات الاجتماعية حسب منطق مؤسس على التمييز، ومما لا شك فيه فإن المؤسسة المدرسية دون غيرها من المؤسسات الأخرى،هي التي تمشرع وتعيد إنتاج السلم والتدرج الثقافي.■

الهوامش

1- Pierre Bourdieu, CHOSES DITES ED MINUIT PARIS 1987, P159
2- Pierre Bourdieu et L. WACQUANT, REPONSES ED MINUIT PARIS 1992, P143
3- Pierre Bourdieu, UN ART MOYEN , ED. MINUIT, PARIS, 1965
4- Pierre Bourdieu, L'AMOUR DE L'ART, ED MINUIT, PARIS, 1966
5- Pierre Bourdieu, LA DISTINCTION, ED MINUIT, PARIS, 1979, P382
6- O. DONNAT, LES PRATIQUES CULTURELLES DES FRANCAIS, LA DECOUVERTE, PARIS, 1990
7- Pierre Bourdieu, LA DISTINCTION,OP.CIT.P459